المشرق الرقمية
٢٥
العدد الخامس والعشرون
آذار ٢٠٢٥

تأويل خطاب القِيمة في رواية "إخوتنا الغرباء" لأمين معلوف

الدكتورة ناتالي الخوري غريب *

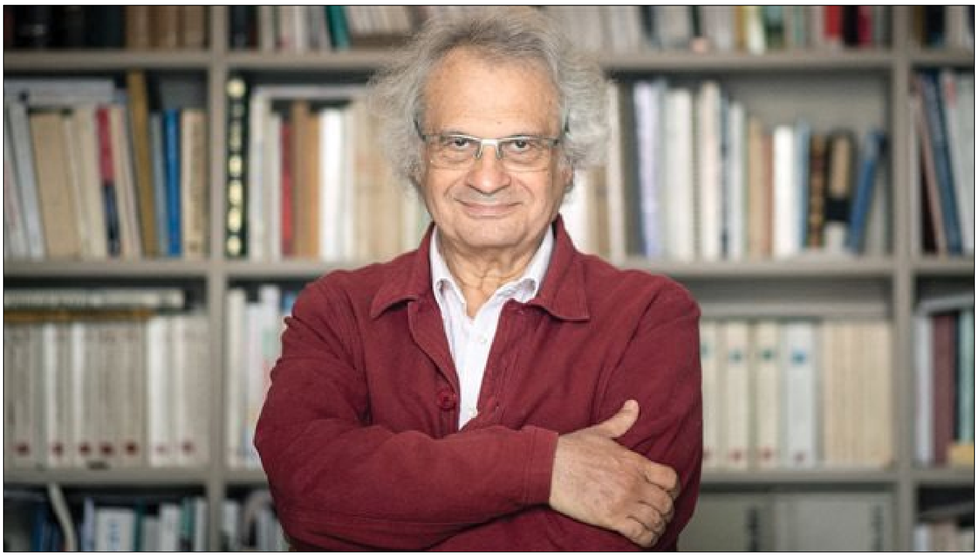

معلوف في "إخوتنا الغرباء" يحاول استشرافَ مصير العالم، وشروط التعايش بين عالمَين موازيَين.

"ما العالم الذي نريد بناءه؟ وبالاستناد إلى أيّ قيم؟
قلَّما اعتدنا طرح هذه الأسئلة. فنحن غارقون في همومنا اليوميَّة..
لكنَّ هذا اللقاء مع إخوتنا غير المنتظَرين سيكون بالنسبة إلينا
فرصة لإجراء تقييم وتبيُّن كيف ضللنا السبيل وكيف نستطيع
أن نصوِّب اتّجاه الدفَّة"[1]

بهذه الفقرة، ختم أمين معلوف روايته الأخيرة، وقد تكون أسئلة التأويل هذه، التي طرحها معلوف في

---

* **الدكتورة ناتالي الخوري غريب:** أستاذة متفرّغة في الجامعة اللبنانيَّة – كلِّيَّة الآداب والعلوم الإنسانيَّة، ومتخصِّصة في الأدبَين الصوفيّ والفلسفيّ. صدر لها أحد عشر كتابًا توزَّعت بين النقد الأدبيّ والرواية والقصص والمقالات الأدبيَّة، ومن بينها: **ميخائيل نعيمه وكمال جنبلاط شاعران في معراج الصوفيَّة**، و**المقامات الصوفيَّة في شعر ربيعة أبي فاضل**، و**القلق الوجوديّ في شعر ميشال الحايك**، و**الشعر العربيّ الحديث: مقاربات فلسفيَّة ومغالطات صوفيَّة**... وصدر لها ثلاث روايات، آخرها: **الطريق الرابع**.
Nathaliekhourygharib@gmail.com

[1] أمين معلوف، **إخوتنا الغرباء**، ترجمة نهلة بيضون (ط.١)، بيروت: دار الفارابي، ٢٠٢١، ٣١٨.

إخوتنا الغرباء، محاولة منه لاستشراف مصير العالم، مستقبل هذا الكوكب، مصدر الخلاص، شروط التعايش بين البشر الذين ينتمون إلى حضارة واحدة، وثقافة واحدة، وصولًا إلى معايير القِيَم ومرجعيَّتها بين البشر في عالمَين موازيَين.

تأويل معلوف هذا العالم الذي ينهار، في هذه الرواية، هو صرخة عالميَّة لإعادة ترميمه قبل فوات الأوان، في لحظةٍ مصيريَّة من التهويل بتقاذف قنابل نوويَّة قبل أن تسقط حقًّا، وتتمّ الإبادة البشريَّة وانهيار الحضارة الإنسانيَّة كلّيًّا. في هذه اللحظة المصيريَّة، محاولةٌ لإعادة توجيه البوصلة في خطاب قِيَميّ وأخلاقيّ، محاولةٌ لإعادة جدولة شروط التعايش والتسامح في ظلِّ عدم تكافؤ القوى بين بشرَين متوازيَين.

لذلك، ستكون خطَّة هذه الورقة البحثيَّة وفاقًا للآتي:

خطوات البحث

١-أ) الترويسة إجراءً تأويليًّا.

ب) كتبُه ومقالاتُه السياسيَّة والاجتماعيَّة مفتاحًا تأويليًّا.

٢-الرموز الحضاريَّة، إحالةً مرجعيَّة لفضاء النصّ: إمبيدوقليس، آدم، إيف.

٣-الخطاب القِيَميّ للأمَّة المتدخِّلة وتلقِّي الآخر:

أ) خطاب الأمَّة المتدخِّلة القِيَميّ: التدخُّل للإنقاذ، شروط الانفتاح على الآخر، الآخر المختلِف، ومرجعيَّة الأخوَّة الإنسانيَّة بين العِداء واللعنة انتقالًا إلى التأليه.

ب) تلقِّي الناس تأويلَ وجود الأمَّة المتدخِّلة على المستويَين الشعبيّ والرسميّ: مرجعيَّة الأخلاق المشتركة.

٤-أسئلة التأويل في الرواية وآداب التعايش ضمن المجتمع الواحد:

استنادًا إلى سؤالَيه الأهمّ في الرواية: أيُّ عالم نريد بناءَه، وبالاستناد إلى أيِّ قيم؟

مقدِّمة

يحاول معلوف أن يكتب تاريخ الغد، ليعيد فيه صياغة الآتي، من خلال حبكةٍ روائيَّة وثمارِ تخيُّل ورموزٍ فلسفيَّة من التاريخ، ومستقبل العلوم. بِلُغة ريكور، هو يُعيد إنشاء الماضي (ماضي الأجيال الآتية)، على غرار التخيُّل الذي يُعيد ابتداعَ العالم. وفي كلتا الحالين، يؤسِّس للنصِّ بواسطة ضربَين من الإسناد: إسناد الرجوع إلى الوقائع الحقيقيَّة (القنابل النوويَّة وتهديد الإبادة، وأمبيدوقليس)، وإسناد الإبداع المتفلِّت من ضرورات العودة إلى الواقع (الكلام على إيقاف الإبادة في اللحظات الحاسمة).

يعود معلوف إلى التاريخ في كلِّ مرَّة لسيتنجد به، في محاولةٍ لاستنهاض مقاربات وتفسيرات جديدة. يريد من المؤرِّخ المفسِّر، كما ريكور، "أن يتناوله في ما ينطوي عليه من معطيات المعنى المخبوء فيه"[٢].

---

[٢] مشير عون، **الفسارة الفلسفيَّة**، بحث في تاريخ علم التفسير الفلسفيّ الغربيّ (ط.١)، بيروت: دار المشرق، ٢٢٠ صفحة، ٢٠٠٤، ١٨٧.

ففي نصِّه "دعوة إلى الزمن الحاضر أن يتأوَّل طاقات التجديد الكامنة في الزمن المنقضي. وعلى قدْر ما يستجلي هذه الطاقات وآثارها المقبلة يُنشئ للإنسان زمنًا وسيطًا بين زمنَين، أي زمن العيش الذاتيّ الوجدانيّ وزمن المجرى الكونيّ"[٣].

لذلك، كان استحضاره أصدقاءَ إمبيدوقليس، وسطاءَ بين زمنَين، لإعادة المجد للتعاون الإنسانيّ وتجاوز الصراع الدائم بين محرِّكَي التاريخ: الحبّ والكراهية، واستحضار لبطلَي الرواية، ألكسندر وإيف، وإشارته الدائمة إلى مُواطنٍ عالميّ منفتح على الأعراق كافَّة والديانات والتصنيفات البشريَّة.

حاولنا اعتمادَ آليَّات إجرائيَّة لعمليَّة تأويل هذا النصّ، فآثرنا البدءَ بمفتاح التأويل الذي يُعطينا إيَّاه معلوف وهي الترويسات:

١-أ) اعتماد الترويسة تقنيَّةً تأويليَّة للمتلقِّي

يعتمد أمين معلوف عتبات نصِّه الروائيّ، الترويسة تحديدًا، تقنيَّةً تأويليَّة، أي يقدِّم لنا مفتاحًا لنصِّه كي لا نبتعدَ كثيرًا عن قصديَّته.

وكي ندرك معاني نصِّه، علينا أن نقوم بمحاورة هذا النصّ كي نُلمَّ بما ينوي قوله، "ومع أنَّ مقصد القول الذي يسبق صوغ النصّ، لا يمكن الإفصاح عنه إلَّا باللُّغة"[٤] لذلك تتجلَّى القصديَّة في سياق النصّ بعد حوار تقوم به الذات القارئة مع الكلام الذي يستخدمه النصّ، وبخاصَّةٍ بداياته وطريقة تقديمه، فيتجلَّى هذا الحوار في الترويسات التي يقدِّمها معلوف لقارئه.

تؤدِّي الترويسات عند معلوف دورَ ما يمكن أن يشكِّل تقنيَّة في الدائرة التأويليَّة، تقنيَّة تُسهم في وعي القارئ في أنَّه يتناول نصًّا ترافقه مفاتيحُ أو إضاءات، تُعينه في إدراك النصِّ قبل عمليَّة التفسير. يبني هذه القراءة على مجموعة افتراضات تقدِّمُها الترويسات، لتنبثق منها أسئلة توجِّه قراءته، وتاليًا تأويلَه.

غالبًا ما يقوم معلوف بأبحاث ومقالات في ثيمة معيَّنة، ومن ثمَّ يكتب نصًّا روائيًّا يعتمد عليها، وكأنَّه يقدِّم المباشر والمجاز ويسخِّرهما في سبيل توضيح مقاصده.

الترويسات في كتاب إخوتنا الغرباء

العنوان: إخوتنا غير المنتظَرين

هو الترجمة الحرفيَّة للعنوان الذي وضعه الكاتب بالفرنسيَّة. ويفتح هذا العنوان بابًا لتأويلات متعدِّدة، فـ "غير المنتظَرين" عبارة توحي بالاعتراف بإمكان وجود كائناتٍ من دون اليقين بذلك، وهي كائنات تُعدُّ بمثابة إخوة للإنسان لكنَّهم يقطنون في كوكب آخر، وتاليًا لهم ثقافة أخرى، أو ربَّما كائنات من حضارة سحيقة في الماضي، وتتمتَّع بإمكان عودتها من هذا الماضي إلى المستقبل، ولو تمَّ ذلك بطريقة مفاجئة

---

٣ Paul Ricœur, *Temps et récit*, III, Paris: Seuil, 1985, p. 147.

٤ R, Laufer, *Le texte en mouvement*, Saint-Denise: presses Universitaires de Vincennes,1987.

غير متوقَّعة، أو ربَّما هم بشر بما أنَّهم إخوة، بشر يسكنون في عالمٍ موازٍ، يَظهرون على الكوكب البشريّ الإنسانيّ لضرواراتٍ تتعلَّق بخَلاصهم لاقترابهم من نهاية حتميَّة.

في كلِّ الاحتمالات التي يفرضها تأويلُ هذا العنوان، وانطلاقًا من الواقع الذي يعيشه البشر من تخوُّف التدمير الذاتيّ، عبر القضاء عليه بهجومٍ نوويّ بين قُطبَين عالميَّين، وكلِّ تداعيات ذلك، فثمَّة إخوة غير متوقَّعين، من الماضي ربَّما أو من المستقبل، أو من عالمٍ موازٍ، سيهرعون بكلِّ تقنيَّاتهم المتطوِّرة ورسالتهم الخلاصيَّة، ومحاولاتهم إلى استدراك هذا الانفجار قبل وقوعه.

الترويسة الأولى للرواية

"الروايات تنشأ من نواقص التاريخ"

بهذه الترويسة لنوفاليس، يفتتح معلوف روايته، ليعلن أنَّ هذه الرواية كُتبت لتفضَح المسكوتَ عنه، في تأويل لحظةٍ مصيريَّة من التاريخ البشريّ، قراءة الحاضر واتِّخاذ حلٍّ فوريٍّ من التأويلات الكثيرة قبل أن تصير حدثًا لا يمكن الرجوع عنه.

مفتاح تأويليٌّ لقصديَّة الرواية بشكل عامّ، ما لم يكتبْه ولن يكتبَه المؤرِّخون، سيجده المتلقِّي الفطِن في المجاز. دور الرواية في الكشف عن أسباب التدمير ومحاولة استبقاء هذا التدمير. وكأنَّه يُشير بهذه الترويسة إلى إعادة النظر في التاريخ المكتوب، واستدراكِ النقص الحاصل فيه، الذي لا يكتمل إلَّا بروايةٍ تستعرض الرأيَ الآخر الذي لم يُكتب، فيبني به غدًا أفضل، يستبق فيه الإبادات المحتملة، بكلِّ منظومة القِيَم التي يحملها وتأويلاتها المختلفة. وهنا تكمن لعبة التأويل، تأويل الروائيّ، الكاتب، لكلِّ ما يجري في هذا العالم وتأويل القارئ.

ترويسة الفصل الأوَّل غشاوات

"إنَّ هذه السماء المكفهرَّة لن تصفو إلَّا بعد عاصفة". شكسبير، **الملك جون**

إشارةٌ إلى قراءة اللحظة المصيريَّة، والغشاوات التي تُعمي المسؤولين عن رؤية نتائج قراراتهم، بشأن استخدام الأسلحة النوويَّة، وإبادة الكوكب، والتأهُّب الدائم بين معسكرَين: الروسيّ والأميركيّ، هذا من ناحية، وقد تكون الغشاوات أيضًا على أعين عامَّة الشعب بعد انقطاع كلِّ وسائل التواصل، وعدم الخوف من العاصفة التي لا بدَّ منها، طالما أنَّها ستُزيل اكفهرار الحياة عنهم. الغشاوة بما هي إشارةٌ إلى الجهل، والتخبُّط في التباساتها وإرباكاتها، ما يُقصي الإنسان عن واقعه ومُجريات الحياة، وتاليًا، يفضي به إلى نتائج لا أفق لها إلَّا المزيد من التخبُّط والإرباكات، فيكون نوعًا ما في عين العاصفة إلى أن تهدأ، فيُعيد تقييم واقعه.

ترويسة الفصل الثاني انجلاءات

"فالضوء ثمين إنَّما ليس إذا كان الثمن الذي سأدفعه أن تفقأ عيناي". أراغون، **ديانا الفرنسيَّة.**

هو الثمن الذي يدفعه الإنسان لرؤية الحقيقة بعد الضباب الذي عاش فيه. فمَن اعتادت عيناه الظلمة، لن يكون سهلًا عليه أن يُبصر في النور. فالتدخُّل مهما كان إيجابيًّا لن يُبصرَه معتادو العتمة وسيعتبرونه إذلالًا وشرًّا. هذا ما ترجمته الرواية بمدى اعتراف مَن يعتبر نفسه أبرز منظومة حضاريَّة على وجه الكوكب وإذلالها، بالبشريَّة المتفوّقة وقبولها بالتطهُّر على يدها، أو الاعتراف بغرق الحضارة الإنسانيَّة وإفلاسها والإقرار بتفوُّق العالم الموازي.

ترويسة الفصل الثالث

سفنٌ راسيات: يقتفي الحشد أثَري يسألني أن أهدي الناس السبيل، بعضُهم يريد سماع نبوءات وبعضُهم أتى سقيمًا عليلًا يطمع منِّي بكلمة تنزل كالبلسم الشافي". إمبيدوقليس، **التطهُّرات.**

إشارة إلى قراءة الرواية في ضوء فكر أمبيدوقليس، أي الشفاءات والهداية بعلوم متقدِّمة، كذلك ترى إلى الموت عدوًّا وحيدًا للإنسان، وليس الآخر، لأنَّه كان يطمح إلى الخلود ضمن نظريَّته في الخلود. والإشارة إلى فكر أمبيدوقليس في ضوء القِيَم التي يبثُّها ومعاييرها وإشراطاتها بالأخوَّة البشريَّة والمصير الواحد.

ترويسة الفصل الرابع: استنارات

"فليكن ماثلًا أمام بابنا ذاك البحر الشاسع المدعوّ بحرًا". سانت جون برس، **معالِم.**

لا بديل عن الانفتاح وإبقاء الحوار مفتوحًا مع الآخر الآتي من وراء البحار، المختلفِ ثقافة وعلومًا وحضارة، حتَّى لا تغرق الحضارة بالتدمير الذاتيّ. فالاستنارات تكون بالتلاقح الحضاريّ مع الآخر المختلِف، مهما اختلفت أو تفاوتت الهوَّة بين الأنا والآخر. أيكون المقصود بهذا الآخر عالم الكائنات الفضائيَّة؟ والتبشير باقتراب تعارُف الناس عليهم؟ ربَّما، لكنَّه يصوِّره كأمر حتميٍّ لتدخُّلهم قبل الانهيار الكليّ للحضارة البشريَّة كما نعرفها.

١-ب) اعتماد كتبِه ومقالاته السياسيَّة - الاجتماعيَّة مفتاحًا تأويليًّا

يمكننا أن نعود إلى كتابَيه، **غرق الحضارات والهويَّات القاتلة**، لنقرأ في ضوئهما مقاصده في هذه الرواية، إذْ يشكِّل انهيارُ الحضارات الإنسانيَّة هاجسًا مُلِحًّا، لكنْ آثرنا الابتعاد خوفًا من الإطالة والتشعُّب.

وتاليًا لأنَّ التركيز في هذا البحث سيكون منصبًّا على الخطاب القِيَميّ الأخلاقيّ ومعاييره.

٢- اعتماد شخصيَّات فكريَّة تاريخيَّة إحالةً مرجعيَّة لفضاء النصّ: أمبيدوقليس

بما أنَّ النصَّ الأدبيّ لا يمكن أن يُفهم إلَّا إذا أدرك الكاتب الأجزاء إدراكًا صائبًا، لذلك آثرنا الإضاءة على الرموز الحضاريَّة في سياقها العامّ، ليتمَّ إدراك الكلِّ الذي يتكوَّن من هذه الأجزاء، على أن يجعلها تنتظم في هذا الكلّ.

فأمبيدوقليس شخصيَّةٌ يستحضرها من التاريخ، يمكننا أن نقرأها هنا في ضوء ريكور. إذْ إنَّ استحضار أمبيدوقليس، الفيلسوف اليونانيّ من القرن الخامس قبل الميلاد، يشكِّل زمنًا تاريخيًّا ليسند إليه وظيفة الربط بين الاختبار الإنسانيّ الذاتيّ والجماعيّ وحركة المسير الكونيّ. يشكِّل أمبيدوقليس في هذه الرواية المادَّة المرجعيَّة التي يُحيل إليها النصُّ الذي ينبغي تفسيرُه واستخراجُ مضامينه واستثمارُها. وبحسب ريكور "تُسهم الإضاءة على هذه المرجعيَّات في إدراك ترابط الأفعال الإنسانيَّة بعضها ببعض وتعاقُب التغيُّرات التي تطرأ على الواقع الإنسانيّ"[٥].

من هو الفيلسوف اليونانيّ في رواية معلوف؟ وما دورُه؟ من هو أمبيدوقليس؟ [٦]

أمبيدوقليس باليونانيَّة القديمة (Ἐμπεδοκλῆς من ٤٩٠ ق.م. إلى ٤٣٠ ق.م.) كان فيلسوفًا يونانيًّا في فترة ما قبل سقراط؛ مواطنٌ بمدينة آغريغنتوم، وهي مدينة يونانيَّة بصقلِّية، وفلسفة أمبيدوقليس كانت المنشأ لنظريَّة العناصر الأربعة، كما اقترح وجودَ قوًى أطلق عليها الحبَّ والبغض سببًا لتمازج العناصر أو انفصالها بعضها عن بعض. ونتيجةً لتأثُّره بالفلسفة الفيثاغورثيَّة، آمن أمبيدوقليس بتناسخ الأرواح. ويُعتبر آخر فيلسوف إغريقيّ يُدوِّن أفكاره وفلسفته كأبيات شعريَّة. توفِّي عندما ألقى بنفسه في فوَّهة بركان، كانت مادَّة ثريَّة للأساطير والكثير من المعالجات الأدبيَّة. ولأنَّ العناصر الأربعة ذات طبيعة بسيطة، دائمة وغير قابلة للتغيير، وأنَّ أيَّ تغيُّر في الطبيعة هو نتيجة مباشرة لتمازجها وانفصالها، فقد اقترح أمبيدوقليس وجود نوع من القوى المحرِّكة التي تقوم بعمليَّة المزج والعزل، وهي الحبُّ والبغض (الحبُّ باليونانيَّة φιλία): يفسِّر تمازج أشكال مختلفة من الموادّ)، و(البغض باليونانيَّة νεῖκος :السبب في انعزالها)[٧]. وقد أشار إلى حدود الوعي البشريّ، حيث يرى الإنسانَ جزءًا من الشيء فقط، بينما يظنُّ أنَّه قد أدرك الشيء كلَّه.

استحضار أصدقاء هذا الفيلسوف، امتدادًا لفكره من القرن الخامس قبل الميلاد إلى الزمن الحاضر، محاولةٌ لإعادة موضوع الصراع الدائم بين الكره والحبّ، وليرى الإنسان الذي يعدُّ نفسه ملكَ الكون حدودَ وعيه، وإمكانات تفوُّق غيرِه عليه بالعلوم والطبّ، وأنَّ الكره والشرَّ وخطاب الإلغاء بالقنابل لم يعد مُجديًا، وألَّا بديل عن التعايش والتعاون. يستقي معلوف، بهذا الرمز الفلسفيّ التاريخيّ في هذه الرواية، بعضًا من

---

[٥] عون، **الفسارة الفلسفيَّة**، ١٨٧.

[٦] "أمبيدوقليس – Empedocles (٤٩٠؟–٤٣٠ ق.م.): فيلسوف وشاعر وطبيب وزعيم دينيٌّ يونانيّ. قال بأنَّ المادَّة كلَّها تتألَّف من عناصر أربعة هي النار والهواء والماء والتراب، وبأنَّ هذه العناصر تتمازج أو تتنافر بفعل قوَّتين خارجيَّتين هما المحبَّة والبغض، فالمحبَّة تحملها على التمازج والبغض يدعوها إلى التنافر. وتزعم الأسطورة أنَّه ادَّعى الألوهيَّة، وأنَّه ألقى بنفسه في فوَّهة بركان أتنا Etna لإقناع أتباعه بما ادَّعى، فلقي مصرعه". (منير البعلبكي، **معجم أعلام المورد**، (ط.١)، بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٩٢، ٢٧٠ صفحة، ٦٥).

[٧] https://ar.wikipedia.org/wiki/%D8%A3%D9%85%D8%A8%D8%A7%D8%AF%D9%88%D9%82%D9%84%D9%8A%D8%B3

مادَّته، ويضيف إليها التخيُّل الحرَّ، ويسبكها في قالب التعبير المجازيّ، لتغدو طريقةَ استدلالٍ على وجهة الحراك الإنسانيّ في أحداث الحياة الفرديَّة والجماعيَّة...ويمكن أن نفهم مقاصده في ضوء ريكور "أن نتجاوز التعارض بين الوصف التأريخيّ والسرد القصصيّ حتَّى تتآزر إسهاماتُ التأريخ وإسهاماتُ الرواية في إغناء معاني الزمن الإنسانيّ."[٨]

وفي أحداث الرواية، ثمَّة اكتمال لوظيفة التأريخ والرواية تتمثَّل في ألكسندر الذي يعمل مؤرِّخًا ورسَّامًا كاريكاتوريًّا يواكب الأحداث اليوميَّة، وإيف التي تعمل روائيَّة، إذْ نرى في قصَّة حبِّهما، وهما المختلفان في كلِّ شيء إلَّا في عزلتهما، إشارة إلى اكتمال وظيفتَيهما معًا، أي وظيفة التأريخ ووظيفة الرواية، وما الطفل إلَّا امتداد لتلاقح هذا التعارض بينهما وامتزاجه لتوليفة تفسيريَّة تُفضي إلى إنماء الزمن الإنسانيّ ويمكننا أن نقرأ تلاحم التأريخ والرواية هنا، وأين تصبُّ المرجعيَّات القِيَميَّة لكليهما، التلاحم القادر على إكساب هذه الاختبارات فائضًا من المعنى تبحث عنه الاجتهادات التفسيريَّة[٩]، ما يُسهم في قراءة الخطاب القِيَميّ الذي يحمله كلٌّ منهما على الرغم من اختلافه، إلَّا أنَّه يُقرأ في فضاء التلاقي بين مرجعيَّات القِيَم لبناء إنسان يبني حاضره ومستقبله من دون أن يُضطرَّ إلى أن يتنكَّر لماضيه.

٣- في تلقِّي الخطاب القِيَميّ بين بشَرَين متوازيَين

تختزن النصُّوص الروائيَّة اختبارات الانسان ومعايناتِه وخلاصة فكره. فالنصوص حياة ونشاط وحراك وتفاعل. وتتجلَّى في هذه الاختبارات الإنسانيَّة منظومةُ القِيَم التي ينشأ عليها ويتمرَّد على بعضها، وينتقي بعضَها الآخر بناءً على ظروف ومواقف وسياقات، منها ما يتعلَّق بمصيره، ومنها بأمانه، ومنها بكبريائه، فَرادى أو ضمن جماعات ينتمي إليها. يندرج ذلك كلُّه في خطاب قِيَميّ، له منطقه ومعاييره بحسب الجهة الناطقة به، والجهة التي تتلقَّاه.

أ) خطاب **الأمَّة المتدخِّلة:** شروط الانفتاح على الآخر، الآخر المختلِف، ومرجعيَّة الأخوَّة الإنسانيَّة وشروطها وتلقِّيها بين العداء واللعنة انتقالًا إلى التأليه.

ب) **تلقِّي الناس تأويلَ وجود الأمَّة المتدخِّلة:** مرجعيَّة الأخلاق المشتركة.

أ) في خطاب الأمَّة المتدخِّلة

تُطالعنا في روايات معلوف بشكل عامّ ظاهرةٌ لافتة هي الجنوح إلى جعل أبطاله وشخصيَّاته متنوِّعةً بتعدُّدها في بُعدها التكوينيّ من جينات عربيَّة وأوروبيَّة وأميركيَّة، كذلك تحميلُها خطابًا يُظهر انفتاحها على

---

[٨] عون، **الفسارة الفلسفيَّة**، ١٨٨.

[٩] "فالفهم الصحيح للتاريخ يجب أن يستهدي بإسهامات المؤرّخ والراوي، كما يرى ريكور، الذي يناصِر مبدأ التعاون بين السرد التأريخيّ والسرد القصصيّ في استخراج أكبر قدر من المعاني المنطوية في الزمن الإنسانيّ. فالزمن الإنسانيّ يتكوَّن في موضع التقاء هذَين الصنفَين من السرد: إنَّ فائدة المقاربة التي تجمع التأريخ والتخيُّل في مواجهة إحراجات الزمنيَّة هي أنَّها تحثُّ على إعادة تناول المعضلة المعروفة، معضلة الإحالة إلى ماضٍ كان ماضيًا حقيقيًّا (حاضرًا حقيقيًّا)، وإعادة صياغتها كمعضلة في إعادة تصوير الماضي". (Paul Ricœur, *Temps et récit*, III, Paris: Seuil, 1985, p.12). والإحراج الذي ينشأ من ضياع الزمن المنقضي يُملي على المفسِّر أن يستعين بمكتسبات التأريخ والرواية. ويذهب ريكور في هذا المذهب التوفيقيّ إلى حدِّ القول بضرورة إنجاح هذا التعاون. (عون، **الفسارة الفلسفيَّة**، ١٩٠).

الآخر، وهاجسها الخلاصيّ في مقابل انغلاق الآخر وسعيه إلى التدمير. إذْ نرى في تصوُّره ألَّا خلاص للإنسان بلا هذه التعدُّديَّات والانفتاح عليها. ثمَّة توق دائم إلى تصوُّر مُواطن أمميّ، مواطن عالميّ، منفتِح على التعدُّد الدينيّ والثقافيّ، يعود بجذوره وأصوله إلى منابع متعدِّدة، مُواطنٍ باحث عن تاريخه ومستقبله معًا، ساعيًا إلى الخلاص من خلال خطابٍ قِيَميٍّ أخلاقيٍّ يدعو إلى التسامح ولمِّ الشمل. وسنحاول رصد المصطلحات في تحديد هويَّة الأمَّة المتدخِّلة من خلال خطابها، بحسب تلقِّي الناس، أي تلقِّي المواطنين الأصليِّين لهم، كما تحمل الرواية عنوانها: **إخوتنا الغرباء**، أو **إخوتنا غير المنتظَرين** (كما يشير عنوان الرواية الأصليّ بالفرنسيَّة: *Nos frères inattendus*).

تظهر من بدايات الرواية مصطلحاتٌ في تحديد هويَّة القوم الغريب الآتي من مكانٍ ما: بدأ أوَّلًا بوصفهم بـ "أولئك القوم"، في إشارة إلى البعيد الغريب، ومِن ثمَّ الرؤية إليهم كـ "شركة متعدِّدة الجنسيَّات" كأنَّ ديموستينس رئيس شركة متعدِّدة الجنسيَّات قدِم لزيارة أحد فروعها". لينتقل إلى مستوًى آخر من الأخوَّة البشريَّة، "إخوتنا الغرباء" إشارةٌ إلى أُخوَّة بشريَّة تحمل القرب والبعد معًا، ومن ثمَّ، إخوتنا غير المنتظَرين، في إقرارٍ بالأخوَّة التي لم يكن المواطن الأصليّ ينتظرها، إخوة المُباغتة، باعتبار "النحن" الشعب الأوحد المسيطر والمتفوِّق.

في تدرُّج الصفات والأحداث، يفصل بين ما تمثِّله الشخصيَّات على تعدُّد ثقافاتها بـ "نحن" وأنتم" حين تتمُّ مخاطبة هؤلاء الإخوة الغرباء، ليتدرَّج في التصعيد بنَعتهم "الأوصياء" في إشارةٍ إلى تفوُّقِهم وقدرتهم على أن يضعوهم تحت رعايتهم، القوَّة المتدخِّلة، لإحداث أمرٍ ما، كأنَّه لا مجال للشكِّ في أنَّهم أوقفوا عمليَّة إطلاق الصورايخ النوويَّة من القوقاز، ليتمَّ وصفهم لاحقًا بـ الأصدقاء الذين وضعَتهم العناية في طريقنا، لكنَّ هؤلاء الذين انتقلوا من أن يكونوا "أولئك القوم" سيصبحون أسيادًا يتبعهم المواطنون الأصليُّون: "أصبحنا بين يومٍ وآخر أتباع سيِّد جديد"[١٠]. لكنَّ القبول تصعَّد في حيِّزٍ من تبرير تدخُّلهم بحجَّة التطهير واستباق الإبادة: "لقد تدخَّلوا لإجراء بعض التطهير"[١١]. وفي مواقع أخرى أطلق عليهم تسمية المنقذين وجابري العثرات... ومِن ثمَّ يُطلق على هذا التدخُّل "التدخُّل العجائبيّ الذي قام به الأوصياء"[١٢]، في إشارة إلى انتقالٍ من مستوى الأخوَّة إلى مستوًى أعلى، لينتقل الكاتب في وصفهم على لسان سكَّان الأرخبيل من انتقالهم "من العداء لـ أولئك القوم إلى البطولة[١٣]، وجابري العثرات"[١٤]، وهذا لا يعني أنَّ ليس ثمَّة من يَصفهم بأنَّهم "زمرة من القراصنة وبائعي الأوهام"[١٥]. وينتقل رفعُ مرتبة الأمَّة المتدخِّلة من نعتهم بأولئك القوم، فالإخوة ليتحوَّلوا إلى قوَّة إلهيَّة.

يظهر الانفتاح على الآخر في هذه الرواية مشروطًا بمدى قدرة هذا الآخر على مدِّ يد العون العجائبيَّة، بمعنى منع الإبادة في اللحظة المناسبة، كذلك إبعاد شبح المرض والموت، والإيمان بالطبِّ المتطوِّر جدًّا.

---

[١٠] معلوف، **إخوتنا الغرباء**، ١١٧.

[١١] معلوف، **المصدر نفسه**، ١٣٧.

[١٢] معلوف، **المصدر نفسه**، الصفحة نفسها.

[١٣] معلوف، **المصدر نفسه**، ٢١٨.

[١٤] معلوف، **المصدر نفسه**، ٢٣٣.

[١٥] معلوف، **المصدر نفسه**، ٢٨١.

ب) تلقِّي الناس خطابَ الأمَّة المتدخِّلة بين اللعنة والمباركة

خطابان يختلفان في مرجعيَّة القِيمة ومعاييرها

على مستوى البطلَين: المؤرِّخ والكاتبة، بما يمثِّلان نمطَين مغايرَين في مرجعيَّة القِيمة، لننتقل إلى مستوى عامَّة الشعب، ثمَّ مستوى الإدارة الرسميَّة للبلاد، وهما الرئيس ومعاونوه وزوجته، ونائب الرئيس.

على مستوى البطلَين

لدينا بطلان بخطابَين مختلفَين في تلقِّي تدخُّل الأمَّة المتفوِّقة، إيف أي حوَّاء وألكسندر. إيف كاتبةُ الرواية الشهيرة: **المستقبل لم يعد يُقيم على هذا العنوان،** في بوحٍ صريح ومباشر بانحيازها إلى حضارة أصدقاء أمبيدوقليس وخطابهم وتدخُّلهم، إيمانًا منها بأنَّ الحضارة الحاليَّة انهارت، ولم تعد تلائم المستقبل وتطلُّباته، وأنّهم أتَوا من "عالم بموازاة عالمنا، سيكون لقاؤنا به، إلى حدٍّ ما، لقاءً مع مستقبلنا"[١٦]، وتاليًا، هم المستقبل.

بطلة الرواية إيف تمثِّل الخطاب الذي يَعدُّ حدثَ تدخُّل أصدقاء أمبيدوقليس، القوم الغرباء، انتقامًا من أبناء قومها وحضارتهم: "إيف تعيش هوان أبناء قومِنا وحضارتهم مثل الانتقام أو الثأر الشخصيّ"[١٧] لقومٍ أصابتهم العجرفة فكان لا بدَّ من آخَر يُريه قيمته الفعليَّة، ولا تحسبهم إخوة غرباء، على عكس الآخرين، تحسبهم إخوة استرجعتهم "نخْبُ إخوتنا الذين استرجعناهم"[١٨]. وهؤلاء الإخوة منحوها هديَّة على شكل طفل، بما يرمز إلى مستقبلٍ جديد من تلاقُح الأُمَّتَين، وانفتاحهما على المستقبل: "لقد منحتنا الأمَّة المتدخِّلة هديَّة على شكل طفل. ومنحتنا سنوات كثيرة نحتاج إليها لكي نراه يكبر ويترعرع. لهذا السبب لا بدَّ لي من مباركة إخوتنا غير المنتظَرين بعد أن لعنتُهم كثيرًا"[١٩].

في مقابل خطاب إيف، خطابُ المؤرِّخ والرسَّام الكاريكاتوريّ الذي يمثِّل نموذج مَن يقف على الحياد ليرى الأمور من كلِّ الزوايا مؤرِّخًا موضوعيًّا لا ينحاز بانفعال العاطفة.

ويحلُّ في هذا الخطاب سؤالُ مرجعيَّة القِيمة وسؤال الكرامة، إذا كان أولئك القوم "بشريَّة متفوِّقة ماذا سيحلُّ بنا أنا ومعشر قومي؟"[٢٠]، "كيف سيُقدَّر لنا الاستمرار عندما لن نعود نعتزّ بأنفسنا؟"[٢١]. وقلت لنفسي إنَّ لدينا عيوبنا، بل ونحن لا نُطاق في كثيرٍ من الأحيان، ونحن مجرمون وبرابرة. ولكنَّ هذا ما نحن عليه"[٢٢]. لينتقل إلى سؤال العقاب: "أيكون الأمر تعذيبًا اخترعه الأوصياءُ علينا لتعذيبنا؟"[٢٣] أو استعراضًا

---

[١٦] معلوف، **المصدر نفسه**، ١٢٠.
[١٧] معلوف، **المصدر نفسه**، ٢٦٣.
[١٨] معلوف، **المصدر نفسه**، ٩٩.
[١٩] معلوف، **المصدر نفسه**، ٣٢٤.
[٢٠] معلوف، **المصدر نفسه**، ١٠٠.
[٢١] معلوف، **المصدر نفسه**، الصفحة نفسها.
[٢٢] معلوف، **المصدر نفسه**، الصفحة نفسها.
[٢٣] معلوف، **المصدر نفسه**، ١١٣.

للقوَّة يهدف إلى إبهارنا وترهيبنا وإخضاعنا؟[٢٤]. "أصبحنا بين يوم وآخر أتباعَ سيِّدٍ جديد"[٢٥]. يغدو الخوف من الآخر هنا بتفوُّقه، وتاليًا قدرة المتفوِّق على إهانة الأضعف وترهيبه وإخضاعه.

تلقِّي عامَّة الشعب

تَرَجَّح الشعب بين خطابَين في تلقِّي الإخوة الغرباء. فبعضُهم رآه نعمة وهبة إلهيَّة بعد أن كان حذرًا منه، وبعضهم رآه تهديدًا للتفوُّق الأميركيّ ووصفه بزُمرة من القراصنة. فمن رآه نعمة، هم من أرادوا وشهدوا نعمة الشِفاءات الكثيرة التي اجترحها هؤلاء بأدواتهم الطبِّيَّة المتطوّرة جدًّا. وبعد أن أدركوا سببَ تدخُّل هؤلاء في منع الإبادة التي كانت قريبة جدًّا، رأَوا تدخُّلَهم عجائبيًّا: "إنَّ نزاعًا مدمِّرًا كان على وشك الاندلاع والتدخُّل العجائبيّ الذي قام به الأوصياء أوقفه"[٢٦]. فتحوَّل خطابُ أهل الأرخبيل: "من العِداء لـ أولئك القوم إلى البطولة"[٢٧]. وتحوَّل أولئك القوم إلى قوَّة إلهيَّة "...غدًا سيجثو أبناء قومنا عند أقدام هؤلاء القوم وسيفرحون لمخاطبتهم باسم الأسياد! حضارتُنا على شفير الموت"[٢٨].

في حين أنَّ الرافضين لوجودهم يشكِّلون مرجعيَّتهم الأخلاقيَّة في كبرياء الدول وعدم القبول بإخضاعهم وإذلالهم: "تمارِس زمرةٌ من القراصنة ومن بائعي الأوهام ابتزازًا حقيرًا على قادتنا الذين لا يتحلَّون بالجرأة لمواجهتها ورضخوا بإذعانٍ لشروطها..."[٢٩].

تلقِّي الجهات الرسميَّة: الرئيس

على المستوى الرسميّ يحمل الخطاب في بداياته، قبل هاجس التعايش، سؤالَ الكرامة بين الدول (أي التسامح هنا). وتغدو المرجعيَّة الأخلاقيَّة بإبعاد الإبادة وشبح الموت عن أعداد كثيرة من الشعب، فيأخذ هذا المنحى التأكُّد أوَّلًا من أنَّ هؤلاء الغرباء مسالمون "أثناء مناقشاتنا مع القوَّة المتدخِّلة هم لا يضمرون لنا العداء وأنَّهم على العكس لا يُكنُّون سوى الاحترام لبلدنا ومبادئ دستورنا وأسلوب عيشنا، وأنَّهم يعترفون بمكانتنا البارزة بين الأمم. وترسَّخ لدينا...لديهم تكنولوجيا تُتيح معالجة الموادّ الإشعاعيَّة..."[٣٠]، وتاليًا إمكانيَّة الإفادة قدر المستطاع من علومهم.

وبدا أنَّ قبول تدخُّلِ الغرباء لإيقاف الإبادة يحمل لواءَ الأولويَّة على الكرامة، لذلك انصبَّ اهتمام الرئيس على ذكر "الوحش النوويّ"[٣١]، لقبول تدخُّل الغرباء، أي سلامة الشعب أوَّلًا. هذا لا ينفي رفضه الإذلال الذي رآه في استباحة الغرباء لإيقاف معهد بحوث وإتلاف أبحاثه"[٣٢]، بما فيها مختبراتٌ لعلم الجراثيم...وتفتيش

---

[٢٤] معلوف، **المصدر نفسه**، ١١٤.

[٢٥] معلوف، **المصدر نفسه**، ١١٧.

[٢٦] معلوف، **المصدر نفسه**، ١٣٧.

[٢٧] معلوف، **المصدر نفسه**، ٢١٨.

[٢٨] معلوف، **المصدر نفسه**، ٢٢٩.

[٢٩] معلوف، **المصدر نفسه**، ٢٨١.

[٣٠] معلوف، **المصدر نفسه**، ١١٥.

[٣١] معلوف، **المصدر نفسه**، ١٣٧.

[٣٢] معلوف، **المصدر نفسه**، ١٣٨.

منشآتنا كما يحلو لهم للتخلُّص من أدوات الإبادة"[33]. إلَّا أنَّ المرجعيَّة الأخلاقيَّة في أحقِّية سلامة الشعب قبل كرامته كان لها الأولويَّة.

٤- أسئلة التأويل في الرواية

تشكِّل أسئلة التأويل التي يصوغها القارئ تحريضًا على الإجابة لفهم معاني النصّ، أو إمكان إيجاد مَكامن انكشافِها، لتنبثق منها عمليَّة صقل هذه الأسئلة وتناسلها وتفرُّعها بما يمكِّن من تدبُّر هذه المعاني المنطوية فيها.

وفي أسئلة التأويل محاولةٌ لاستثارة تأويلات بشأن النصِّ توضِّح غوامضَه أو تبيِّن طاقات المعنى الذي يختزنها، ليستطيع القارئ أن يكشف عن الغرض الذي أراد الكاتب أن يُفصح عنه.

وبما أنَّ الإنسان هو كائن البحث عن أفضل سبل الانتماء إلى العالم، وهذا الوجود مفطورٌ على قابليَّة التفسير، بحسب بول ريكور، "فلا بدَّ لكلِّ فسارة من أن تُبنى على جدليَّة الذات والآخر، حتَّى يستقيم فيها الاستدلال على المعنى"[34]، وهذا ما ينصبُّ عليه فضاء هذه الرواية.

- هل يمكن الاحتكام إلى سلطة معياريَّة واحدة عند معلوف؟ كيف نقرأ ذلك في ضوء النسبيَّة الأخلاقيَّة؟
- ما هي آداب التعايش في المجتمع الواحد أوَّلًا، وبين بشرٍ من عالم أصليٍّ وآخر موازٍ؟
- ما التسامح الذي نراه في الخطاب القِيَميّ، وهل يمكننا مناشدة السماح في ضوء عدم التكافؤ؟

شروط خطاب التعايش والتسامح، ومرجعيَّة الأخوَّة البشريَّة أوَّلًا

أوَّل شروط الانفتاح على الآخر غير المعروف

أ) ألَّا يضمر العداء، والتعاون الوثيق بين الجميع في أكثر اللحظات إرباكًا:

للتعايشِ شروطٌ أوَّلُها الثقة في المجتمع الواحد والتعاون، ومن ثمَّ تعاون الشركاء في القارَّات، وصولًا إلى التعاون مع طرف غير معروف لكنَّه لا يضمر العداء خطوةً أولى. إذًا يشترط التعايش التعاونَ بين الجميع لتخطِّي أيِّ مرحلة حرجة ودقيقة، فالمرجعيَّة الأخلاقيَّة في اللحظات التاريخيَّة الحرجة هي التلاحم والتعاون بين الجميع، وقبول العون من أيِّ أخوَّة بشريَّة، وهي التي تأتي أوَّلًا في سُلَّم الأولويَّات في مسرى الحضارات ولحظاتها الأكثر إرباكًا.

"لقد أصبحنا نعرف سبب هذه الظواهر...لكنَّ الحكمة تقتضي عدم التحدُّثِ عنها الآن...اتِّصالات على أرفع المستويات مع أشخاصٍ لا يضمرون أيَّ عداء لأميركا"[35]؛ "سننجح بفضل يقظة جميع الأميركيِّين

---

[33] معلوف، **المصدر نفسه**، ١٤١.
[34] عون، **المصدر السابق**، ص ٢٠١.
[35] معلوف، **المصدر السابق**، ٥٩.

وحكمتهم وحسِّهم المدنيّ وبالتعاون الوثيق مع أصدقائنا وشركائنا في جميع القارَّات، في تخطِّي هذه المرحلة الدقيقة"[٣٦].

ب) في خطاب طمأنة الشعب الأميركيّ

يُظهر خطاب الرئيس انفتاحه على التعاون مع جهةٍ من دون تسميتها، أو الإشارة إلى أنَّها حكومة أو منظَّمة... يشير إليهم بـ "لا يُضمرون العداء لأميركا". لم يذكر سارادروف، لم يتطرَّق إلى لحظة النزاع النوويّ، لا ليقول إنَّه اندلع، ولا أنَّ تفاديه ممكن... فالأولويَّة للتعاون في درء الخطر، بغضِّ النظر عن ماهيَّة هذا الخطر.

المرجعيَّة الأخلاقيَّة هنا تُكتَسب من الحاجة إلى الآخر لإبعاد شبح الإبادة، من دون أن يكتسب أهمِّيَّةَ هويَّةِ هذا الآخر. إبعاد الإبادة والموت، لحظة مصيريَّة تتغيَّر في سبيلها الأولويَّات.

ج) تأويل الخطاب، من باب تلقِّي الناس: كيف يفسِّر الناس هذه المرجعيَّة الأخلاقيَّة؟ من خلال تأويل خطاب الرئيس؟

منهم (إيف)، مَن يقرأه على أنَّه خطاب استسلام ولا سبيل للمقاومة ولم تقرأه خطابَ تسامح... وإقرار مواجهة خصم غير متوقَّع؟"[٣٧].

لا يسمِّيه خصمًا ولا عدُوًّا ولا يسمِّيه شريكًا...ومنهم (ألكسندر) يقرأه على أنَّه خطاب يُزيل قلق القنبلة ويضع مكانه قلقًا من نوعٍ آخر"[٣٨]. هو قلقُ قَبول العون من فريقٍ، ليس خصمًا لكنَّه ليس شريكًا.

يتشكَّل في هذا الخطاب مكوِّنُ القبول الإيجابيّ للغير، والذي "يُفيد أنَّ الممارسات أو القناعات التي تُقابَل بالتسامح خاطئة أو سيِّئة بالفعل، ولكنَّها لم تصل بعد إلى مستوى الخطأ أو السوء الذي يجعل فكرةَ التسامح مستحيلة في حقِّها. إنَّ المبرِّرات المؤيِّدة للتسامح على مستوى مكوِّن "القبول" هي المبرِّرات نفسها التي تؤدِّي إلى رفض سلوكيَّات معيَّنة تتجاوز في السياق المطابِق الجانبَ المهمّ؛ لكنَّ رفض تلك السلوكيَّات يجب ألَّا ينتهي بإلغائها. يجب أن يظلَّ الرفض إذن حاضرًا"[٣٩]. من هذا الباب، لم يرفض ملتون، أي الرئيس، قبولَ يدِ العون من أولئك القوم، فهم لم يقوموا بما يبرِّر عدمَ مسامحتهم.

وفي خطاب ملتون الأخير، يتطوَّر التعاون مع هذا "الآخر" غير المعروف وغير العدوّ، إلى مرحلةٍ أخرى من تبادُل الاحترام والتقارب والتضامن بعد أن كانت الدورب منفصلةً بين الطرفين، ما يدعو إلى البحث عن معنى التقارب والتعايُش في اللحظات المصيريَّة الحرِجة للشعوب، وقد ربط شرطَها هنا بمدى تقديمها وعونها:

---

[٣٦] معلوف، **المصدر السابق**، ٦٠.

[٣٧] معلوف، **المصدر السابق**، ٦٢.

[٣٨] معلوف، **المصدر السابق**، ٦٣.

[٣٩] راينر فورست، "التسامح والاعتراف"، ترجمة كريم العنيمي، موسوعة ستانفورد، مجلَّة **الحكمة**.

"حتَّى الآن كانت دروبنا منفصلة، ومن الآن فصاعدًا، يجدر بنا أن نسير جنبًا إلى جنب، وأن نتبادل الاحترام والتعليم، وأن نشعر إلى الأبد بأنَّنا متقاربون ومتضامنون"[٤٠].

ومن الاحترام والتبادل إلى الصداقة: "باسم الصداقة التي يُغدقها هؤلاء الناس علينا أن نصدِّق"[٤١].

د) خطاب إلكترا: خطاب الأمَّة الأخرى في التعايش، الموت هو العدوّ الأوحد:

في خطاب القوم المنقِذين، جابِري العثرات، تتحدَّد أولويَّة الخطاب بتحديد العدوِّ من الصديق، وحصره بالموت "المسألة محسومة لدينا نحن أصدقاء أمبيدوقليس. ماذا عنكم؟ هل أنتم على استعداد اعتبار الموت عدوَّكم الوحيد؟ لا القوى العظمى الغريمة، لا الشعوب الأخرى، لا الأعراق الأخرى، لا نحن. الموت فحسب. هل أنتم على استعدادٍ لإعادة النظر في أولويَّاتكم، وفتح صفحة جديدة معنا وفيما بينكم؟"[٤٢]

لا شكَّ في أنَّه خطاب الطرف الأقوى، والنظرة إلى الآخر على أنَّه الأضعف ولا مجال أمامه للخيار. أمَّا كيف تمَّ تلقِّي خطابها، أي البحث عن معنى هذه الدعوة، فكان فهمُها على أساس أنَّها دعوة إلى النضج من قِبل بعضهم: "إيف: ما يجب علينا فعله أنْ نصبح راشدين...ذلك شرطهم للعودة"[٤٣]. وقد جوبهت بخطاب عنفيٍّ من بعضهم الآخر.

هـ) خطاب ردِّ البشر العنفيّ:

قد يكون التكبُّر الإنسانيّ وفرط القوَّة والاستعلاء من أبرز منابع الخطاب العنفيّ: فالإنسان، الأميريكيّ هنا تحديدًا، يعتقد أنَّه الانسان المتفوِّق: "كنَّا نعتقد أنَّنا ملوك الكون، أعلى قمم الخليقة، إيفرست الخليقة. نحن وماضينا المجيد، وعلمنا العظيم، وأدياننا المهيبة"[٤٤].

على الرغم من معرفتهم بأنَّ الحضارات كلَّها إلى فناء، لكنَّهم على اقتناع أنَّهم صانعو التاريخ، إلى أن أتى المنقذون المتفوِّقون بطُبِّهم وعلومهم التكنولوجيَّة الأكثر تطوُّرًا، أي أصدقاء أمبيدوقليس، وأظهروا لهم أنَّهم أكثر فضيلة ونقاوة: "إيف: حتَّى عندما نقول إنَّ حضارتنا فانية، كنَّا ننجح في التحلِّي بالتبجُّح والصفاقة! كنَّا مقتنعين بأنَّنا صنعنا التاريخ. ويتبيَّن أنَّنا لم نخرج من عصور ما قبل التاريخ!"[٤٥]..."لكنَّهم أفضل حالًا منَّا! أكثر حرِّيَّة، أكثر فضيلة، وأكثر نقاوة!"[٤٦].

و) خطاب البشر الموازي: الهويَّة والهدف ومعياريَّة الفعل: التسامح فعل إجباريّ

– الإنقاذ والحيلولة دون وقوع كارثة:

إجابةً عن التساؤل بشأن هويَّة المنقذِين، يعلن أحد أصدقاء أمبيدوقليس أنَّهم قوم لا يعملون لحساب

---

[٤٠] معلوف، **المصدر السابق**، ٣١٩.
[٤١] معلوف، **المصدر السابق**، ١٤٣.
[٤٢] معلوف، **المصدر السابق**، ٣٢٠.
[٤٣] معلوف، **المصدر السابق**، ٣٢٢.
[٤٤] معلوف، **المصدر السابق**، ٩٧-٩٨.
[٤٥] معلوف، **المصدر السابق**، ٩٨.
[٤٦] معلوف، **المصدر السابق**، الصفحة نفسها.

أيّ أمَّة أو قوَّة عظمى، وهدفهم الوحيد هو الحيلولة دون وقوع كارثة على نطاق الكوكب "سيكونون على عجلة في أمرهم للعودة إلى أدوار المتفرّجين حالما يتبدَّد هذا الخطر"[٤٧].

إقامة علاقات متبادَلة لصون المستقبل، مع تبريرٍ أخلاقيّ للاستعلاء، في مرجعيَّةٍ معياريَّة هي صون المستقبل للشعوب وإمكانات التطهير بلا ضحايا، والتي تأتي بالنفع على الجميع.

أمَّا التبرير الأخلاقيّ للاستعلاء فجاء تفسيرًا لسوء التأويل من قِبل الأميركيّين، بسبب أحكامهم المسبقة، كذلك إسقاطًا منهم على الآخرين بسبب تاريخهم المشحون بالهيمنة والضراوة والجشع. وسوءُ الظنِّ بهم لم يأت من فراغ، بل من ماضيهم الذي لطالما استخدم القوَّة للنَّيل بعضهم من بعض، لذلك، من الأفضل أن يقوم خطابُ الدولة الرسميّ على إفهام الشعب أنَّ أصدقاء أمبيدوقليس هم قومٌ منقِذ، ووجودهم وطرق تصرُّفاتهم وسبلها وأدواتها إنَّما هي للتطهير وصونٍ للمستقبل، ولا نوايا استعماريَّة أو استعلائيَّة: وهذا ما جاء على لسان المبعوث من أصدقاء أمبيدوقليس:

"نضطرُّ للتصرُّف من دون موافقتكم. ظننت أنَّنا نستطيع إقامة علاقات متبادَلة. أغلب أصدقائي لديهم أحكام مسبقة راسخة ضدَّكم وضدَّ كلِّ أمم الأرض. وعندما يستعرضون مساركم لا يرَون سوى الضراوة والجشع والنِعات القاتلة. يعتقدون أنَّكم عاجزون عن استخدام قوَّتكم لشيءٍ آخر سوى الهيمنة والقهر. لا يصدِّقون مبادئكم وتعهُّداتكم"[٤٨].

إنَّ المرجعيَّة المعياريَّة لخطاب الاستعلاء عند أصدقاء أمبيدوقليس نابعٌ ليس من تفوُّقهم فحسب بل من معرفتهم بتاريخ جشع البشر، وضراوتهم، الذين دخلوا أراضيهم، ومجابهتهم بتوقهم الدائم إلى الهيمنة، ولا شكَّ في أنَّ هذا جعَل الأحكام المسبقة عنهم نُصُبَ أعينهم. لذلك نفهم أنَّ أغاممنون ووراءه أصدقاء أمبيدوقليس لا يدركون التسامح إلَّا بحدودٍ يقفون عندها. فهم لا يتسامحون مع اللَّامتسامحين، كالأميركيّين، تحت شعار"لا تسامح مع اللَّاتسامح الذي يصبح محدودَ الجدوى، لأنَّه غالبًا ما يتسرَّب فعل اللَّاتسامح نفسه في هذه المحاولات لوضع الحدود"[٤٩].

وفي مكانٍ آخر، يُرجِع السلطة المعياريَّة لضرورة التدخُّل إلى صون المستقبل، من دون أن يأبهوا بطرق التدخُّل التي يراها الآخرون غير مناسبة: "كي لا يخيِّم الشكُّ وتسود النقمة بين قومكم وقومنا يجب أن تقولوا لموظَّفيكم المدنيّين وعلمائكم ومواطنيكم وسائر العالم إنَّ هذا التطهير سيصون مستقبلكم ومستقبل أبنائكم"[٥٠].

وفي هذا نبرة استعلاء لا تتسامح مع الرفض، لأنَّ النتيجة الأخيرة ستكون في مصلحة عموم الشعب. وبما أنَّ التسامح لا ينبغي أن يكون إجباريًّا، وبخاصَّةٍ أنَّنا هنا أمام طرفَين غير متكافئَين، فيصبح تسامح

---

[٤٧] معلوف، **المصدر السابق**، ٨٨.

[٤٨] معلوف، **المصدر السابق**، ١٤٢.

[٤٩] فورست، "التسامح والاعتراف"، مجلَّة **الحكمة**.

[٥٠] معلوف، **المصدر السابق**، ١٤٤.

الطرف الأضعف هنا مدارة وخضوعًا. وهذا ما يؤدِّي إلى الكلام على التعايش والتسامح في ظلِّ عدم تكافؤ القوى.

ز) سؤال التعايش والتسامح في ظلِّ عدم تكافؤ القوى:

التفاوت الحضاريّ:

يظهر الفرق في الرواية "بين بشرَين مختلفَين بالتطوُّر حضاريًّا"[٥١] يحاولان أن يتحاورا: خطاب ألكسندر، المؤرِّخ المحايد، بطل الرواية والراوي معًا، يحمل رسالةَ سلام ونبذ للعنف والبغضاء، حتَّى لو كان مقتنعًا بصوابيَّة قوله وعمله، إلَّا أنَّه يعلم أنَّ المرجعيَّة تضعها سلطة المتفوِّق الذي يفرض عِلمه. ففي ظلِّ عدم تكافؤ القوى، الغلبة للأقوى بما يتركه وراءه حتَّى لو رحل، فاستعلاء المتفوِّق أمر لا بدَّ منه، والمفارقة أنَّهم عاشوها وشهدوها هم أيضًا، في استعلائهم على شعبٍ أقلَّ منهم، في مقارنة بينهم وبين العصر الحجريّ، فالتطوُّر السريع يخلق فجوة لا يمكن ردمها ولا التغاضي عنها: "أنا لا أرتاح أمام البغضاء، حتَّى عندما أكون مقتنعًا بأنَّني على صواب. ..هو وقومه يتَّهموننا ونحن نتَّهمهم. يُضلِّلوننا ونُضلِّلهم. المفارقة أنَّنا فقط نحن نعاني وهم سيرحلون...إخوتنا غير المنتظَرين، ما أقلَّ شبههم بنا! إنَّهم يُشبهوننا كما نشبه البشر في العصر الحجريّ القديم"[٥٢].

ح) آداب التعايش بين القومين والتوجُّس من الآخر

طبيعة التعايش في ظلِّ عدم تكافؤ القوى:

في ظلِّ طبيعة عدم التكافؤ بين شعبٍ يَعتبر نفسه حتَّى الأمس القريب الشعب المتفوِّق وملكَ الكون، إلى أن أتى قوم غير معروف، أنقذه من إبادة محتَّمة، ومدَّ له يد العون في الطبِّ المتفوِّق مع معدَّات متطوِّرة جدًّا تكاد تكون عجائبيَّة لسرعة عملها، فهذا أمر ليس من السهل تقبُّله، لكنَّ المستقبل الذي يصوغ علاقة الطرفَين يفرض أسئلة عن طبيعة علاقتهما معًا:

إلى أن يأتي اليوم الذي لا يعود فيه اللقاء بينهم وبيننا محفوفًا بالمخاطر. معضلتُهم نفسها على مرِّ القرون: إذا ما أقاموا علاقة معنا، ما هي الصلات التي ستنشأ بيننا وبينهم؟ هل يتعاملون معنا كأنداد؟ كإخوة؟ هل يتقاسمون معنا جميع معارفهم؟ لكُنَّا أسأنا استعمالها وحوَّلنا كلَّ اكتشاف من اكتشافاتهم إلى وسيلة للتدمير والاستعباد. ما العمل؟ هل يتعاملون معنا كبشريَّة أدنى مرتبة؟ كقُصَّر أبديِّين؟ هل يحصروننا في مرتبة الإخضاع والتبعيَّة؟ لو فعلوا هل سيخونون مبادئهم السامية!"[٥٣].

الخوف من طبيعة التعايش مع شعب متفوِّق هو تخوُّف مشروع، فبعد أن تكون مَلِكًا للكون وتصبح فجأة في مرتبة أدنى، ويُطلَب إليك أن تكون تبعيًّا خاضعًا كقاصر، مع شعب لا تعرف إذا كان ممكنًا أن يخون مبادئه التي تعرف أنَّها سامية. قد يكونون موجودين وهم "يحتقرونك منذ الأزل"![٥٤]

---

[٥١] معلوف، **المصدر السابق**، ١٦٦.

[٥٢] معلوف، **المصدر السابق**، ١٦٥.

[٥٣] معلوف، **المصدر السابق**، ٢٦٤.

[54] معلوف، **المصدر السابق**، الصفحة نفسها.

سؤال التعايش هنا كأحد تمثُّلات التسامح يصلح سبيلًا ملائمًا لتفادي النزاع، لكنَّه نشأ توخِّيًا للمصالح الذاتيَّة. وهو بذلك لا يمثِّل قيمة في ذاته ولا يرتكز على قيمٍ متينة. إنَّ ما يتغيَّر هنا هو التركيبة المكوَّنة بين الأفراد المتسامحين ومواضيع التسامح. نحن أمام فئات من الناس متساوِين في المنفعة، (الذين تمَّ شفاؤهم)، يدركون أنَّهم ملزمون بممارسة التسامح رغبةً في طلب الأمان والشفاء والمصالح الذاتيَّة.

"إنَّ إدراك جدارة أولويَّة التسامح في تمثُّل التعايش لا يحتوي بالطبع على صفةٍ معياريَّة، إنَّه إدراك لضرورات العمليَّة. لذا فتمثُّلُ التعايش مفهومًا للتسامح لا يؤدِّي إلى وضع اجتماعيٍّ ثابت"[٥٥].

ويصحُّ ذلك في هذه الحالة تحديدًا بين البشر في العالمَين، لأنَّ الأميركيِّين أنفسَهم قد يستخدمون كلَّ ما يتعلَّمونه من علوم حديثة في سبيل التدمير والتدمير الذاتيّ. لكن، على الرغم من ذلك، يمكن أن يَنتج عن تمثُّل التعايش أشكال من التعاون أكثر ثباتًا، ما دامت هناك ثقة ملائمة ومتبادلة بين الفئتَين المتسامحتَين.

ففي النهاية الإنسان ينتمي إلى الجموع التي دخلت عليهم أمَّةٌ جديدة ويعرف أنَّه يحتاج علومها وإنقاذها. "أعترف لهم بالفضل لأنَّهم جنَّبونا حربًا ضروسًا، ورموا لنا بشبكة النجاة لالتقاط لوثات جنوننا السابقة والتالية"[٥٦]. وكي لا يغدو اللقاء بين عالمَين غير متكافئَين اصطدامًا "هذا اللقاء بين قومك وقومي ليس جمعَ شمل ويا للأسف بل إنَّه اصطدام"[٥٧]، باعتبار أنَّ أحدهما يردِّد خطاب التبجُّح والعنف: "الأميركيُّون يفضِّلون الاعتماد على قواهم الذاتيَّة ويحبِّون أن يُطلَب منهم التفاني"[٥٨]. والآخر لديه ما يجعله يعرف أنَّ الآخر سيكون صورة ممسوخة عنه في حالِ أطالَ الإقامة عنده: "ستضمحلّ حضارتكم وتصبح ممسوخة عن حضارتنا"[٥٩]، لذلك كان لا بدَّ من صيغة اتِّفاق تقوم على الاحترام والتبادل، كتمثُّل من تمثُّلات التسامح، كي يتبدَّد الخوف المشروع من غزوة الأوصياء بكلِّ ما لها من قوَّة وتفوُّق على مختلف المستويات، لأنَّ ما أتى به هؤلاء لهم، سيجعل الشعب يطالب بهم. لقد أتَوا إليه بكلِّ ما يطمح إليه المرء وهو شفاء مَن يُحِبّ، على الرغم من أنَّ فريقًا آخر سيطلب رحيلهم، لأنَّه ستظهر إلى الواجهة مسألةٌ من "مسائل الكبرياء في العلاقات بين الدول"[٦٠]، التي تحفِّز سؤال الخوف من الآخر. وبخاصَّةٍ في خطاب "الآباء المؤسِّسون الجدد"[٦١]. فعلى الصعيد الرسميّ، بما يمثِّله نائب الرئيس في الرواية، يظهر خطابُ العنف والكراهية والاستعلاء عند الذين يرَون إلى حضور ضيوفٍ غير مدعوِّين ابتزازًا للقادة: "تمارس زُمرة من القراصنة وبائعي الأوهام ابتزازًا حقيرًا على قادتنا الذين لا يتحلَّون بالجرأة لمواجهتها ورضخوا بإذعان لشروطها..."[٦٢].

وبما أنَّ أميركا تمثِّل أعظم قوَّات مسلَّحة على وجه الأرض قاطبةً، فلن تقبل بأن تجرَّد من أسلحتها...

---

[٥٥] فورست، **المرجع السابق**، مجلَّة **الحكمة**.

[٥٦] معلوف، **المصدر السابق**، ٢٦٩.

[٥٧] معلوف، **المصدر السابق**، ١٩٠.

[٥٨] معلوف، **المصدر السابق**، ٢١٤.

[٥٩] معلوف، **المصدر السابق**، ٢٢٠.

[٦٠] معلوف، **المصدر السابق**، ٢٢٨.

[٦١] معلوف، **المصدر السابق**، ٢٨١.

[٦٢] معلوف، **المصدر السابق**، الصفحة نفسها.

والقبول بالذلِ والهوان.. لذلك كان الخطاب مفعمًا بالاستعداد للقتال لكي يبقَوا أحرارًا: "إنَّنا نقسم بأن نقاتل بكلِ قوانا، وبجميع الوسائل، ومهما كانت التضحيات، لكي نستحقَّ الحرِّيَّة التي تركها لنا أسلافُنا إرثًا"[٦٣].

وقد صعَّدوا في خطابهم إلى ضرورة شنِّ حرب ليتوجَّع أولئك القوم ويرحلوا عنهم: "لا بدَّ من أن يخضع قوم أمبيدوقليس لصدمة وأن يتوجَّعوا بشدَّة ويسقط بينهم قتلى لكي يقرِّروا الرحيل"[٦٤]. مشيرًا إليهم باسم "الضيوف غير المدعوِّين"[٦٥]. يريدون لشعبٍ أن يتوجَّع مع أنَّ هذا الشعب (أصدقاء أمبيدوقليس) تدخَّلوا لإنقاذهم من إبادة حتميَّة.

هذا الخطاب العنفيّ الاستعلائيّ عينُه، هو الذي يجعل البشر يستخدمون الأسلحة ضدَّ أنفسهم وحضارتهم، ما يؤدِّي إلى التدمير الذاتيّ، في مقابلِ خطابٍ آخر يرفض استكبارهم في الرؤية إلى الأمور: "لقد كان بإمكان آلة جهنّميَّة نوويَّة أو بكترولوجيَّة أو كيميائيَّة أن تنفجر في حاضرةٍ كبرى... ولكن هل بمقدورنا تفاديها إلى الأبد؟ لا، فالضغائن تحتدم، والتكنولوجيا تهيّئ لها – عن علمٍ حينًا وبراءة أحيانًا أخرى– الأدوات التي ستسمح بإطلاق العنان لها والتسبُّب بإبادة تامَّة. فما كان حتمًا أن ننجو من كارثة. الاحتمال معدوم. لذلك تشبَّث أبناء عصرنا على هذا النحو بمخلِّصيهم غير المتوقَّعين"[٦٦].

ط) المخاوف السحيقة من الآخر: تفوُّق الآخر يُظهر ضعف الأنا:

على الرغم من انقسام السكَّان إلى متوجِّس من أولئك القوم ومؤلِّه لهم، إلَّا أنَّهم في الحالين جسَّدوا مخاوف الناس السحيقة كذلك آمالهم: "من الملاحظ أنَّ هؤلاء أصبحوا يلُوحون في عيون قومنا تارة مخلِّصين، وتارة مفترسين. فلقد استوطنوا في مخيِّلتنا وجسَّدوا مخاوفنا السحيقة كذلك آمالنا"[٦٧].

قد يُمثِّل موقف "الإخوة الغرباء" وقفةً أمام جبروت الإنسان ليعرف محدوديَّته أمام كوكبٍ آخر قد يغزوه، أو هي محاولة قراءة الذات في ضوء وجودِ آخر يهدِّد وجوده، وأنَّ الحضارات في صراع دائم عرضةٌ لغرق دائم: "حوَّلوا تاريخنا بكوكبته المجيدة من الأبطال والغزاة والقدِّيسين والمكتشِفين إلى فصل ثانويّ من المغامرة الكونيَّة، ولأنَّهم برمشة عين، اختزلوا معشر البشر، بجميع شعوبهم، إلى مرتبة سكَّان أصليِّين. غير أنَّ حضاراتنا لم تتردَّد في التصرُّف على هذه الشاكلة الواحدة تجاه الأخرى"[٦٨].

وهذا ما يؤدِّي في طبيعة الحال إلى ضرورة الوقوف والتأمُّل في الأولويَّات. إنَّ وعي الناس بأنَّ الأسلحة الفتَّاكة قد تنقلب ضدَّ أصحابها ولا يمكن تفاديها إلى الأبد، وتاليًا الاعتراف بوجود حضارةٍ أخرى أكثر تطوُّرًا وتمدُّنًا أظهرت ضعف حضارتهم أمام التحدّيات الجديدة، عبر"ظهور أصدقاء أمبيدوقليس" قد أدَّى في جميع أنحاء العالم إلى انقلاب في الأولويَّات وسلَّم القيم، لمعرفة أيّ عالم نريد بناءه والعيش فيه. من هنا يمكننا

[٦٣] معلوف، **المصدر السابق**، ٢٨١.
[٦٤] معلوف، **المصدر السابق**، ٢٨٨.
[٦٥] معلوف، **المصدر السابق**، ٢٩٠.
[٦٦] معلوف، **المصدر السابق**، ٣٠٣.
[٦٧] معلوف، **المصدر السابق**، ٢٦٩.
[٦٨] معلوف، **المصدر السابق**، ٢٧٠.

أن نستعير من فولتير قولته: "التسامح حاجة وليس اختبارًا حُرًّا. فهو في العادة يمارَس عندما يعترف الناس بسيِّئات شيء قد تقود محاربةُ السوء فيه إلى ما هو أسوأ منه"[69]، كي لا تقع البشريَّة في الأسوأ، وهنا الإبادة، كان لا بدَّ من ممارسة فعل التسامح كخطوة أولى في سلَّم الأولويَّات لبناء عالم قابلٍ للعيش بأمان.

في السلطة المعياريَّة للسؤال الأخلاقيّ: بين أنا – الفرد والآخر – الجموع:

حاول معلوف في هذه الرواية طرح عدد من الأسئلة الأخلاقيَّة التي تتفرَّع بعضها من بعض في السياق الاجتماعيّ الإنسانيّ، في معايير تحديد الأولويَّات، منها:

في القرار السياسيّ لموتِ عدد قليل فداءً لعدد كبير من الناس:

في السؤال الأخلاقيّ عن موت القلَّة فداءً للكثرة، تكمن السلطة المعياريَّة في خلاص غالبيَّة السكَّان، على ألَّا يكون موت هؤلاء سدًى، أي أنَّ ثمَّة خلاصًا يحمله موتهم. "اتِّخاذ قرارِ موت عدد غير قليل لإنقاذ عدد كبير"[70].

يمكننا أن نقرأ ذلك في ضوء المنفعة الأخلاقيَّة التي تنادي بتحقيق أكبر منفعة لعدد أكبر من الناس...، لكنَّه كان قرارًا صادرًا من نائب الرئيس، ولا يعكس رغبة رئيس البلد أو عامَّة الشعب، لكنَّه رأيٌ يعكس وجهة استعلاء الفرد تحت غطاء قرار الجموع للتحكُّم بمصائرهم.

في الحياد الفرديّ وإيجاد مبرّرات الغضب والعدوانيَّة:

على الرغم من أنَّ أغاممنون من أصدقاء أمبيدوقليس، إلَّا أنَّ صداقته للمؤرِّخ جعلت هذا الأخير يرى في الحياد من المظاهرة ضدَّه وإحراق منزله نوعًا من الذنب: "لم يسعْني إلَّا أن أشعر بالذنب تجاه الرجل الذي أظلُّ أعتبره صديقًا..."، "التحامل الدنيء على بيتٍ فارغ يقزّزني"[71]. لكنَّه في الوقت عينه، لم يلُم سكَّان الأرخبيل على ما قاموا به في هذه المحنة التي تهدِّد وجودهم: "كنت أشفق عليهم أكثر ممَّا ألومهم. فنحن جميعًا نعيش محنة مرهقة من عشرة أيَّام. وعلى حين غرَّة نصادف مذنبًا! لا شخصًا مجهولًا تحوم حوله الشبهات...مذنبًا ثبت ذنبُه، أحد "أولئك القوم"[72].

لذلك حاول إيجاد مبرِّرٍ أخلاقيٍّ لعدوانيَّتهم، وفي الوقت نفسه إيجاد مبرِّر لهروبه من الدفاع عن منزل "صديقه": "سكَّان الأرخبيل ليسوا أوباشًا ولكنَّهم خائفون. ضعْ نفسك مكانهم"[73].

غالبًا ما يلجأ بطل الرواية، ألكسندر، كمؤرِّخ، إلى وضع نفسه مكان الطرف الآخر ليحاول إيجاد مبرِّرات مقنعة قبل إطلاق أحكامه، ومن ثمَّ يرسم لنفسه مساحة كافية تجعله يُطلُّ على الطرفين من باب الحَكَم المحايد.

---

[69] فولتير، **قول في التسامح**، ترجمة سعيد بنكراد، بيروت: المركز الثقافي العربيّ، ٦.

[70] معلوف، **المصدر السابق**، ٧٣.

[71] معلوف، **المصدر السابق**، ١٧٠.

[72] معلوف، **المصدر السابق**، ١٦٩.

[73] معلوف، **المصدر السابق**، ١٨٣.

سؤال الأخلاق وعدم اللُّجوء إلى ازدواجيَّة المعايير:

إذا قبل الرئيس تلقِّي العلاج على يدهم، لن يستطيع أن يمنع العلاج عن الشعب، ولأنَّه يرفض تلقِّي العلاج يستطيع السماح لنفسه بمنع المستشفيات العائمة"[٧٤]. فرفضُه قائم ضمن معياريَّة أخلاقيَّة، هي ما يفيد منه، عليه أن يسمح للجميع بالإفادة منه، وإلَّا الرفض سيكون حرمانه من العلاج وحرمانهم.

سؤال الأخلاق في استقالة الطبيب والإقرار بتقادُم علمه وتفوُّق الآخر:

بعد تحسُّن وضع الرئيس على يد أصدقاء أمبيدوقليس، يُقرُّ طبيبه الخاصّ أنَّ المعارف التي اكتسبها خلال دراسته لا تتيح له أن يفهم الآليَّة التي حصل بها الشفاء التامّ. ولهذا السبب قرَّر الكفَّ عن مزاولة أيِّ نشاط "في اختصاصه"[٧٥]، مصرِّحًا بوضوح:

"إنِّني أعتبر في قرارة نفسي وضميري أنَّه لم يعد يجوز لي أخلاقيًّا أن أواصل معالجة مرضاي استنادًا إلى علمٍ قد تقادَم بين عشيَّة وضحاها"[٧٦].

هذا الاعتراف يعود إلى مرجعيَّة أخلاقيَّة في الإقرار بأنَّ ثمَّة عِلمًا تقادَم لكنَّه يمارَس مع الوعي التامّ بعدم جدواه نسبةً إلى ظهور علمٍ آخر أظهر أهمِّيَّته وقدرته على الشفاء السريع.

أسباب الانعزال عن الآخر في المجتمع الواحد:

الانعزال للمراقبة بهدوء والتأريخ

الانعزال كُرهًا بالبشر

ثمَّة خطابان مختلفان في النظرة إلى الآخر وسبب الانعزال عنه. يتجلَّى الأوَّل في خطاب ألكسندر المؤرِّخ والرسَّام، الذي انعزل لكي يراقب العالم وليفهمه بطريقة أفضل، ولا يمكن أن يُدينهم لأنَّه منهم، في حين أنَّ جارته الكاتبة ابتعدت عن الناس لأنَّها تكرههم، وتقوم بإدانتهم: "إنَّنا لا نعيش الوحدة نفسها. إنَّها تهرب من البشر، الذين من الواضح أنَّها تمقتهم. أمَّا أنا فقد انعزلتُ عن العالم كي أراقبه بمزيد من السكينة، وربَّما لكي أفهمه فهمًا أفضل وأحيط به إحاطة أشمل"[٧٧].

المرجع الأخلاقيّ للمؤرِّخ المحايِد أنَّه لا يمكنه إدانة البشر. فبقدر ما ينظر إليهم بعينٍ ناقدة وبقدر ما يدرك عيوبهم، لا بدَّ له من أن يعترف بأخوَّتهم البشريَّة والتاريخ المشترك معهم، فهو منهم وتاريخهم هو تاريخه "أخطاؤهم تخزيني وإنجازاتهم تملأ قلبي فخرًا. وإخفاقاتهم تحزنني"[٧٨].

في حين أنَّ الروائيَّة مقتنعة بأنَّ البشر قد ضلُّوا السبيل وأنَّها تبتهج عوضًا عن التحسُّر، معوِّلةً على أنَّ المستقبل سيتولَّى زمامه آخرون. وتشير إلى اليونان القديمة وتذكر شخصيَّة أمبيدوقليس"[٧٩]. "أنا لا أنتمي

---

[٧٤] معلوف، **المصدر السابق**، ٢١٦.

[٧٥] معلوف، **المصدر السابق**، ٢٤٤.

[٧٦] معلوف، **المصدر السابق**، الصفحة نفسها.

[٧٧] معلوف، **المصدر السابق**، ٢٨.

[٧٨] معلوف، **المصدر السابق**، ١٢٣.

[٧٩] معلوف، **المصدر السابق**، ١٢٨.

إليها! (الجموع)، لطالما بقيتُ بمعزل عنها. تمنَّيت على الدوام أن يأتي يوم يخلِّصني من اللقاء الفظيع على انفراد مع البشر. لقد تحقَّقت الأعجوبة. وجاء المنقذون"[٨٠].

ألكسندر: "حُكمي عليهم كان متقلِّبًا. تارة أتحسَّر على الزمن الماضي الذي كان يتراءى قومي أرقى خليقة. وتارة أخرى أبتهج لأنَّني عرفت ذلك الزلزال الذي قد يكون خلاصيًّا"[٨١].

تُظهِر هذه النماذج الأسباب المتعدِّدة لأسباب الانعزال عن الآخر، وتعدُّد المعايير الأخلاقيَّة لذلك، بانتظار أفقٍ ما، أو سبيل، يُغيِّر مصير البشريَّة برمَّته.

منبع السؤال الأخلاقيّ ولياقات اللحظات المصيريَّة في المجتمع الواحد:

حين يكون الموت ماثلًا أمام الناس، يغدو التخاطب من باب رؤية إنسان فانٍ إلى إنسان فانٍ آخر، أي أنَّ لغة التخاطب في اللحظات المصيريَّة تغدو أكثر صدقًا ينعدم فيها الزيف والمجاملات ويضمحلّ الكبرياء.

فالسؤال الأخلاقيُّ هنا ينطلق من فكرة الفناء لتساوي البشر وحقيقتهم الأخيرة: "ما معنى الأدب والكياسة في هذه الليلة، وما قيمة سموِّ النفس عندما يكون الفناء ماثلًا ها هنا ويوشك أن يحوِّل كلَّ الأشياء إلى أجساد يأكلها الدود...؟"[٨٢]. "سأتحدَّث إليها من رجل فانٍ إلى امرأة فانية"[٨٣].

استنتاج

وكأنَّ هذه الرواية، كما كتاب فولتير، **في قول في التسامح**، نداءٌ موجَّه إلى إنسانيَّة مَن يحكمون، ونداءٌ إلى الحذر"[٨٤]. التسامح المبنيُّ على القانون الإنسانيّ. التسامح تحميه عاطفة الناس ومزاجُهم، لذلك فهو مفهوم أخلاقيّ، أمَّا الاختلاف فيحميه القانون، إنَّه بذلك مفهوم سياسيّ"[٨٥].

إذا كان معلوف في رواية **التائهون** عن الحرب اللبنانيَّة، قد صوَّر المنظومة الفكريَّة الوطنيَّة والإيديولوجيَّة، لشلَّة من الأصدقاء الجامعيّين، يجمعهم حبُّ الوطن والرغبة في النهوض والانفتاح، وتجاوُزِ الخطابات الطائفيَّة كما صوَّر العواملَ المعاكسة التي شتَّتت الشملُ بالهروب المتتالي "جرَّاء التناقض البنيويّ الذي يدخل على نحو حاسم، في تكوين فكرة الطائفة، وشكلِ اجتماعها ونوع ممارساتها"[٨٦] ، فها هو في رواية **إخوتنا الغرباء**، يُكمل هذه الأسئلة على صعيدٍ أكبر، وينتقل من الوطن كبقعة جغرافيَّة محدودة إلى كوكب الأرض والمواجهة مع بشر موازٍ– قد يكونون كائنات فضائيَّة – يمكن أن يخلِّصوا شعوب القارَّات من إبادة محتَّمة.

---

[٨٠] معلوف، **المصدر السابق**، ٢٦٥.

[٨١] معلوف، **المصدر السابق**، ٢٦٧.

[٨٢] معلوف، **المصدر السابق**، ٣٠.

[٨٣] معلوف، **المصدر السابق**، الصفحة نفسها.

[٨٤] فولتير، **المرجع السابق**، ١٧.

[٨٥] فولتير، **المرجع السابق**، ١٥.

[٨٦] فولتير، **المرجع السابق**، ١٥.